الفصل الثاني

الأوّابُ الرّحِيمُ

زوجه الرسول صلى الله عليه وسلم ابنته « رُقيَّة » . . ولما توفّاها الله إليه ، زوجه ابنته « أم كلثوم » . . ولما انتقلت إلى الرفيق الأعلى ، أسِفَ الرسول إذْ لم يكن له كريمة أخرى يزوجها صهره الحبيب ، وقال قولته المأثورة :

« لو أنَّ لنـا ثالثة لزوَّجناك إياها »

بل إن الحديث لَيُرْوَى بصيغة أخرى تقول :

« لو أن لى أربعين بنتاً لزوجتهن عثمان واحدة بعد واحدة » ! !

فما المزايا وما الشَّمائل التى أهَّلَت « عثمان » لكل هذا الحدَب وهذا الإيثار من رسول الله العظيم ؟ ؟ . .

إنها شمائل كُثْر ، تعبق بالخير ، وبالمروءة . . ويفوح منها عبير الرحمة حيث نلقاها أو حيث نَلقاه . .

والرسول الذى مَنّ الله به على عباده قائلا :

« لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ، عزيزٌ
عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ ، حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ ،
بِالمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ » .

هذا الرسول الرءوف الرحيم ، لم يَكن يَستهويه من بين شمائل البشر شيء مثلما تستهويه الرحمة ، ومثلما يستهويه التَبَتُّل الصادق إلى الله ، والإخبات الوثيق إليه . .

ولقد كان حظ « عثمان » من الإخبات والرحمة عظيماً وجزيلا .

إنه أوَّابٌ رحيم . .

صَوَّام النهار ، قوَّام الليل . يتفجَّر قلبه رحمة وحناناً .

أُومِن أجل هذا قال الرسول يوماً :

« لكل نبي فى الجنة رفيق »
« ورفيق فى الجنة عثمان » . . ؟ ؟

لقد كان فى العبادة واحداً من أفذاذها المعدودين ، وبطلا من أبطالها المبرَّزين .

وصف معاصروه هُيامه بالعبادة فقالوا :

« كان عثمان يصوم الدهـــر ، ويقوم
الليـــل إلا هَجْعَـــة من أوَّله » .

وإنا لنعلم ما كان وراء « عثمان » وما كان بين يديه من نَعماء جَمَّةِ الغَدَق ، وارفة الظلال .

فعندما يقضى الدهرَ صوَّاماً ، رجلٌ مثل « عثمان » ، تَعِجُّ داره بأطايب الطعام . .

وعندما يقضى الليلَ قوَّاما ، رجل تُغْرِيه الفُرُشُ الناعمة الوثيرة بالدَّعَة والراحةِ ؛ فلابد لهذا الرجل أن يكون من طراز آخر بلَغت كلمات الله من روحه أعماقها . ورنا قلبه إلى الله رُنُوًّا أنساه كل شيء عَـداه .

ثم حين نراه يُثابر على عبادته طوال عمر مديد بلغ الثمانين من الأعوام ، فإن صورة العابد الأوَّاب تستكمل أمامنا قَسَماتها الباهرة الجليلة ، وتفتح أعيننا وبصائرنا على حقائق هذا العابد الأواب بكل ما لها وكل ما عليها .

لقد كان فى عبادته وفى طُهره موصول القلب بالله كما كان عظيم الوفاء . . ذلك أن حياته حتى قبل الإسلام كانت حياة نَقيّة ، وكان دائم التحدث بنعمة الله هذه عليه فيقول :

« ما زنيت ولا سرقت فى
جاهلية ولا فى إســلام » .

وكانت صِلَةُ قلبه بالله بعد إسلامه ، تنهض على وَعْيٍ رشيد بجوهر هذه الصلة وهذه العلاقة .

وإذْ كان القرآن كلمةَ الله التى رسم بها لعباده كيف يَحيون وكيف يعبدون ؛ فقد تعلَّق قلبه بالقرآن تعلُّق الوَالِه الهيْمان ، فكان ربما استغرق الليل كله على طوله فى ركعتين اثنتين ، يظلُّ يقرأ فيهما من القرآن حتى تروى روحه الظامئة المشتاقة ، وحتى يوشك أن يبلغ آخره وخِتامَه ! !

ولسوف نراه بعد حين ، وقد اقتحم الثوار داره تدفعهم الفتنة الجامحة الجاحدة العمياء لقتله واغتياله ، فلا يعنيه من الأمر كله إلاّ

أن تُستَلَّ الحياة من جَسده الوهْنان ، وبين يديه مصحف . . وعلى لسانه وشفتيه كلمات الله . . ! !

ولم يقف هُيامه بالقرآن عند حد التِّلاوة ، وترطيب لسانه وفؤاده بآياته المباركات . بل كان التعبُّد به والتعبُّد له جوهر هذا الهُيام .

فى بَدْء الفتنة التى نَشِبَتْ ضده ، جلس قوم يحاورونه ويطيلون الحِوار . فكان جوابه لهم :

« إن وجدتم فى كتاب الله أن تَضعوا
رِجلَىَّ فى قيود ، فضعوهما » ! !

فكتاب الله عنده هو الحجة البالغة ، وهو فصل الخِطاب . .

أجَـــلْ . .

كان القرآن قِبلَتَه وقُدوَتَه ، ومن ثَمَّ أدركتْ عبادته صفاءها وجلالَهَـــا . .

ولطالما كانت تهزُّه هذه الآية فيكثر تردادها :

« واضْرِبْ لَهُمْ مثَلَ الحَياةِ الدُّنيـــا كمَاءٍ
أَنْزلْنـــاهُ مِنَ السَّماءِ فاختَلطَ بِهِ نَباتُ
الأَرْضِ ، فَأَصْبَحَ هَشِيـــماً تَذْرُوهُ
الرِّياحُ . وكان الله عَلَى كُلِّ شَىءٍ مُقْتَدِراً »

إن الرجل الثرىَّ العريض الثَّراء ، قد وَجد تِرْياقه من إغراء المال ، ووجد تعويذته الوُثْقى من فتنته الضَّارية فى هذه الآية الكريمة التى تفضح زيف الدنيا ، وتكشفها للمفتونين بها ، حتى يبصروها على حقيقتها « هشيماً تذروه الرياح » ! !

وهكذا وجدنا جوده العظيم . . جُودَ رجل لم يعد المال فى نظره سوى هَشيم ، إلاَّ أن ينفقه فى سبيل الله فيتحوَّل بهذه النفقة إلى خُلودٍ حَق ، وثواب باق عظيم . .

• من أجل هذا رأيناه كما أسْلَفْنا يشترى « بئر رومة » وحده . . ويُجهّز جيش العُسْرة بنفقات بالغة ، تنوءُ بها الخزائن الممتلئة . .

• ثم نراه يُمْضى مع نفسه مَوْثقاً لا يُخْلِفُه طوال حياته : هو أن يعتق كل جمعة عبداً ، ويُحرِّر رقَبَة . . يشترى العبد من سيده بأى ثمن ، ثم يهبه حريته مبتغياً وجه ربه الأعلى . .

• ولا يكاد يبصر التجارَ يهمون باحتكار الأرزاق ، أو بيعها بثمن باهظ ؛ حتى يرسل قوافله لتعود محملة بما يفسد عليهم احتكارهم ويصيب استغلالهم بخيبة أمل قاتلة . .

• وإذا جاءت رواحلُه من اليمن أو من الشام محملة بالخيرات ، وتواكَبَ حوله تُجار المدينة وما حولها ، دخل معهم فى مُساوَمات شَيِّقَة . . ما أجمل أن نطالع الآن إحداها ، يرويها لنا ويحدثنا بها « ابن عباس » رضى الله عنه فيقول :

« قَحِط الناس فى زمان أبى بكر ، فقال الخليفة لهم : إن شاء الله لا تُمسون غداً ، حتى يأتيكم فرج الله . .

« فلما كان صباح الغد ، قدمت قافلة لعثمان

« فغدا عليه التجار ، فخرج إليهم وعليه مُلاءة قد خالَف بين طرفيها على عاتِقه . .

وسألوه أن يبيعهم قافلَته
« فسألهم : كم تُربحوننى . . ؟
« قالوا : العشرة اثنى عشر . .
قال : قد زادنى . .
قالوا : فالعشرة خمسة عشر . .
قال : قد زادنى . .
قالوا : من الذى زادك ، ونحن تجار المدينة . . ؟ ؟
قال : إنه الله . . زادنى بكل درهم عشراً ، فهل لديكم أنتم مَزيد . . ؟ فانصرف التُّجار عنه ، وهو ينادى : اللهم إنى وهبتُها فقراء المدينة بلا ثمن ، وبلا حساب » . .

* * *

هكذا كان ولاؤه للقرآن ، ومنهجه فى العبادة . .

إنها عبادة تعنى مع قيام الليل وصيام النهار ، بذلٌ سَخيٌّ وعطاء مِدْرار . .

وتتألق روح العابد الأوّاب فى قدرته على الزهد والبساطة ، فكثيراً ما كان يطبقهما على حياته ، هو الذى تتدفق عليه الأموال ، وينفقها باليمين وبالشمال ! !

فيحدثنا « شَرَحْبِيل بن مسلم» قائلا :

« كان عثمان يطعم الناس طعام الإمارة . .
ويأكل هو الخـــل والزيت » ! !

كما يحدثنا « عبد الله بن شدّاد » فيقول :

« رأيت عثمان يخطب يوم الجمعة وعليه
ثوب قيمته أربعة دراهم ، أو خمسة
دراهم . . وإنه يومئذ لأمير المؤمنين » ! !

هذا سلوك عابد أوّاب ، أضوَى شهوة الطعام لديه حتى « بَشِمَتْ » بالصيام ! !

وأذلّ نخوة الجاهلية فى عروقه . حتى عَزتْ نفسه بروعة الإسلام ! !

ومن أى النواحى جئته ، ألْفَيْتَ جلال العابد يبهر مُحيَّاك .

* يغضب على خادم له يوماً فيعرك أذنه حتى يُوجِعه . . ثم سرعان ما يَقُضُّ ضمير العابد مَضجعه ، فيدعو خادمه ويأمره أن يقتصّ منه فيعرك أذنه . . ويأبى الخادم ويُولى مَدْبراً . لكن « عثمان » يأمره فى حزم ، فيطيع . .

« اشْدُدْ يا غـــلام ؛ فإن قِصاص الدنيا
أرحم من قصاص الآخـــرة » ! ! !

إنه العابد الأوّاب ، نَلقاه هنا كما نلقاه فى كل مقام . .

* وندخل مسجد المدينة ، فنرى رجلا مهيباً جليلا قد نام فوق حصاه ، ورداؤه تحت رأسه ، ثم ينهض من نومه فنرى أثر الحصا فى جنبه . . إنه هو أيضاً . . العابد الزاهد الأواب عثمان بن عفان . . أكثر قومه مالا وثراء ونَعمة ، فى الجاهلية وفى الإسلام . . ! !

إن هذا ليذكرنا برأى « عبد الله بن عمر » فيه . . فلقد كان رضى الله عنه يقرأ الآية الكريمة :

« أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيْلِ ، ساجداً وقائِماً ، يَحْذَرُ الآخِرَةَ ويَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ »

ثم يقول : هو « عثمان بن عفان » . .

* * *

أما « عثمان » الرحيم ، فقد كان أمره عجبًا . . إن الرحمة تشيع فى حياته كما يشيع الرِّىُّ فى العود الأخضر الرَّيّان .

ومن التصرفات العادية اليسيرة ، إلى التصرفات التى ترتبط بالمصير ويتوقف عليها أمر الحياة والموت ، نجد الرحمة نبراس هاتيك التصرفات جميعها .

« عثمان » الذى ينهض من الليل — وهو خليفة المسلمين — فيرفض أن يوقظ أحداً من خَدَمه كى يُعد له وضوءه ، ويتحامل على شيخوخته المجهدة فى إحضار الماء وإسباغ الوضوء . . هو « عثمان » الخليفة الذى يرفض النجاة من سيوف قاتليه ، إذا كان ثمن هذه النجاة قطرات دم تُسْفَح من مسلم برىء . . ! !

« يدخل عليه « زيد بن ثابت » وقد رأى الثوار يتنادَون لحصار داره فيقول له :

« يا أمير المؤمنين . . هؤلاء الأنصار بالباب يقولون : إن شئت كنا أنصاراً لله مرتين . . »

فيجيبه الخليفة الرحيم :

« أمَّا القتال ، فلا . . » ! !

• ويصيح فى الصحابة الذين تجمعوا حول داره ليواجهوا الثوار بالسلاح :

« إن أعظمكم عنى غَناءً ، رجـل كفَّ يده وسلاحه » . . ! !

• ويـرى أبا هريرة شاهراً سلاحه فى اهتياج شديد ، فيدعوه إليه ويقول له :

« أيَسُرُّك أن تقتل الناس جميعاً وأنا معهم ؟

« أمَا إنك والله لو قتلت رجلا واحـداً ، لكأنّما قتلتَ النـاس جميعاً » . . ! !

• وحين يعلم أن عُصْبة كبيرة من شباب المسلمين وعلى رأسهم الحسن ، والحسين ، وابن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، قد أخذوا مكانهم لحراسته ، وشهروا سلاحهم ، يتفطر قلبه أسىً ، ويدعوهم إليه ويتوسَّل إليهم قائلا :

« أُناشِدُكُم الله وأسألكم به ، ألاَّ تُراق بسببى مِحْجَمةُ دم » . . ! ! !

ألم أقل لكم : إنه أوَّابٌ رحيم . .

وإنها لرحمة جامعة ، تُغطِّى بعطائها المقسِط جلائل الأحداث وصغارَها . . فللخادم منها حظه وحقه فى أن ينعم براحة النوم وإن أضْنَى الخليفة نفسه وشيخوخته فى ظلمة الليل البهيم . . ولقطرات الدم حظها

وحقها فى أن تنعم بالسلامة والعافية ، وإن كان بديل ذلك أن تزهق روح الخليفة الشيخ ، بيد معتد أثيم ، وغادر زَنِيم . . ! ! !

* * *

لقد كان « عثمان » رضى الله عنه أحد القلائل الذين يدفعون حياتهم ثمناً لفضائلهم العالية .

ولقد توغلت الرحمة فى حياته وفى سلوكه حتى اقتضته آخر الأمر حياته نفسها فجاد بها ، مؤثراً أن يموت وولاؤه للرحمة مشدود الأواصر ، علىَ أن يحيا وقد فقد مكانه فى طليعة الرحماء الأبرار .

ولقد كان من الطبيعى لرجل وسعت رحمته الناس جميعاً ، أن تُغطّى رحمته ذوى قُرْباه .

ولقد كان رضى الله عنه نسيج وحده فى حبه أهله ، وفى صلته رحمه .

وحسبنا فى ذلك قول الإمام على عنه :

« أوْصلُنا للرحم عثمان »

وغدًا . . عندما تُلْقَى على كاهله مسئولية الخِلافة ، سنرى رحمته الشديدة بأهله ، وحبه المفيض لذوى قرباه ، يلعبان دوراً حامى الوطيس فى الأحداث الضارية التى رزأت الإسلام بأفجع مآسيه . .

* * *

قلنا إن « عبد الله بن عمر » رضى الله عنهما ، كان يتلو قول الله تعالى :

« أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيْلِ ساجِدًا وقائماً ،
يَحْذَرُ الآخِـرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ »

ثم يقول : إنه « عثمان بن عفان » . .

وهى شهادة حق تتألق فى ضوئها ، بل تتألق هى فى ضوء العبادة الصافية المثابرة التى أُتْرِعَتْ وازدانت بها حياة « عثمان » منذ عرف الله ، إلى أن لقيه شهيداً مجيداً . .

فلقد كان رضى الله عنه ، يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه . .

وحذرُه الآخرة ورجاؤه رحمة الله ، يتبدَّيان فى حياته كلها ، وفى تصرفاته جميعها . . حتى تلك الطائفة من تصرفاته التى أُخِذتْ عليه ، كان وراءها اطمئنان رجل يرجو رحمة ربه . .

ولقد كان يحمل إشفاقاً من الآخرة عظيماً . نراه فى خُطبه التى كان يخطب المسلمين بها .

« أيها الناس . .

« اتقوا الله . فإن تقوى الله غُنم . وإن أَكْيَسَ الناس مَن دَانَ نفسه وعمِل لما بعد الموت واكتسَبَ من نور الله نوراً لقبره . .

« ولْيَخْشَ عبد أن يحشُره الله أعمى وقد كان بصيراً » . .

وفى خطبة أخرى يقول :

« إن الله أعطاكم الدنيا ؛ لتطلبوا بها الآخرة . ولم يُعطِكُموها لتركنوا إليها . .

« إن الدنيا تفنى ، وإن الآخرة تبقى ،

فآثِرُوا ما يبقى على ما يفنى

« إن الدنيا منقطعة . . والمصير إلى الله وحده »

وكانت روحه ترتجف ، وعَبراته تفيض عند ما يذكر الآخرة ، وعندما يتخيَّل نفسه ، وقد انشقَّ عنه قبره ، ونَسِلَ من جَدَثِه مسرعاً إلى العَرْضِ والحساب .

ولقد رُوِى عنه قوله :

« لو أنى بين الجنة والنار ، لا أدرى إلى أيتهما يُؤمَرُ بى ، لَتمنَّيْتُ أن أصير رماداً قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير » ! ! !

* * *

ورجل يحذر الآخرة كل هذا الحذر ، لا يخطئ السُّبل المفضية إليها ، ثم هو لا يخطئ أفضل هذه السُّبل وأسماها . . ذلكم هو الجهاد فى سبيل الله .

وهنا — كما فى بقية شمائله وفضائله — لا نجد فى عثمان « عابدَ صَوْمَعة » . . بل « عابداً » يملأ الحياة سعياً وجِدًّا وبذلا واستبسالا .

لقد كان بحيائه وبتركيبه النفسى يكره رؤية الدم المسفوح .

ولكن حين هبَّت قُوَى الوثنية والشرك لتطفئ نور الله ، وأمر الله رسوله ومَن معه أن يأخذوا سلاحهم بأيمانهم . وأن يبيعوا لله أنفُسهم وأرواحهم ألقى « عثمان » بنفسه فى المعمعان الرهيب ، وأخذ مكانه فى الصفوف المرصوصة على أرض الغزوات والمعارك .

« لم يشهد « غزوة بدر » ؛ لأن زوجته « السيدة رُقيَّة » بنت

الرسول كانت مريضة مرض الموت ، وأمره النبي أن يبقى بجوارها ويسهر عليها . . ولقد امتثل وأطاع . وفى اليوم الذى جاءت البشرى إلى المدينة بانتصار المسلمين فى « بَدْر » فاضَت روح « رُقَيَّة » إلى بارئها .

• وعند ما كان الرسول عليه الصلاة والسلام يوزع غنائم النصر على المقاتلين ، اعتبر « عثمان » حاضراً ومقاتلا ، وفرض له قَسْمه ونصيبه ! !

• وفى غزوة أحُد صاوَل وقاتَل . . ولكن عند ما باغَتَ جيش الشرك المسلمين من جديد وأخذهم على غِرَّة شَتَّتَتْ صفوفهم ، وبَعْثَرَتْ تماسُكهم ، وتعالت الأصوات الناعِيَة : [أنَّ محمداً قد مات] تغشى « عثمان » من الذهول والفجيعة ما جعلة يُوَلِّى عن أرض المعركة مُدْبراً مع الذين تَوَلَّوْا يومئذ مُدْبرين ، يدفعهم الذهول لا الجُبْن . . فقدَّر الله عُذْرهم وقبل اعتذارهم ونزل الوحى بشأنهم يقول :

« . . . ولقد عفا الله عنهم »

• ولم يتخلف عن المعارك التى خاضها الإسلام مِن بعد ، فشهد خيبر ، والفتح ، والطائف ، وهوازن ، وتبوك ،

وفى يوم « الحُدَيْبِيَة » تصدَّى لمخاطرة نبيلة اختاره لها الرسول فسارع إليها فى بسالة واستبشار .

* * *

كان ذلك فى العام السادس للهجرة ، حين عزم رسول الله أمره وخرج بأصحابه إلى مكة ليزور البيت الحرام . حتى إذا بلغ مَنهَلَةً من

مَناهِل الطريق عند « عُسفان » جاءته الأنباء أنّ قريشاً قد علمت بمسيره ، فخرجت فى ثياب الحرب للقائه :

واستأنف الرسول مسيرته المباركة حتى بلغ مهبط الحدَيْبِيَة على مشارف مكة ، واستقرّ بأصحابه هناك .

وأخذت « قريش » تبعث برُسلها ومندوبيها إلى النبى ليُثبطوا عزمه ، وليحملوه على الرجوع . . لكن مندوبيها جميعاً كانوا يعودون بغير الوجوه التى جاءوا بها .

أجَلْ . . كانوا يقدمون على الرسول بوجوه كالحة غِضاب تحكى إصرار قريش على التَّحدِّى . . ثم لا يكادون يجلسون بين يدى الرسول ويسمعون كلماته حتى تلين قلوبهم وتخشع .

بل إنهم وقد جاءوا يُحذِّرون الرسولَ بأسَ قريش ، عادوا جميعاً لِيُحذِّروا قريشاً بأسَ الرسول . . ! !

كان آخر هؤلاء المبعوثين « عروة بن مسعود » . . جلس يقول للنبى عليه السلام : [يا محمد ، إنها قريش قد خرجَت معها العُوذُ المطافِيل ، قد لبِسُوا جلود النُّمور ؛ مُتعاهدين ألاّ تدخُلَها عليهم عُنوة أبداً] . .

لكنه وقد أذْهَلَه جلال ما سمع وما رأى ، عاد إلى قومه ليقول لهم : [يا معشر قريش . إنى قد جئت « كِسْرَى » فى مُلكه . . و « قيصر » فى ملكه . . و « النَّجاشِىّ » فى ملكه . . وإنى والله ما رأيت ملكاً يعظمه قومه ، مثلما يعظم أصحاب محمد محمداً . . ولا رأيت ملكاً يحبه قومه ، كما يحب أصحاب محمد محمداً . . وإنهم والله لن يُسْلِموه أبداً . . فرَوْا رأيكم] . . ! !

لكن قريشاً كعادتها ، أخذتها العِزّة بالإثم . .

هنالك رأى الرسول أن يبعث إليهم من عنده رسولا يؤكد لهم أنه عليه السلام لم يأت غازياً ، بل زائراً للبيت ومُعظِّما له ، فدعا « خُراش ابن أمية الخزاعى » وانتدبه لهذه المهمة . . بَيْدَ أنَّ قريشاً لم تكد تراه وتسمع كلماته حتى عقَرتْ بعيره الذى كان يركبه ، وهمُّوا به ليقْتلوه لولا أن مَنعَتْه الأحابيش وأنقذته من الموت .

وعاد « خُراش الخزاعى » إلى الرسول وقصَّ عليه ما حدث .

وفى اليوم التالى ، بعثت قريش خمسين رجلاً من أشِدَّائها ، ليتحرشوا بالمسلمين ، وليضربوا معسكرهم بالحجارة وبالنبال ، وليختطفوا منهم من يستطيعون اختطافه .

لقد جُن جنونها إذن ، حتى همَّت بقتل مبعوث الرسول إليها ، وهو أمر كانت تقاليدهم تأنفه وترفضه وتأباه . . فما عُرف عنهم قط قتل السُّفَراء ! !

ورأى الرسول عليه السلام ما يعترى الموقف من توتُّرٍ ينُذِر بالخطر ، فقرر أن يبعث رسولاً آخر يرد قريشاً إلى صوابها إن كان قد بقى لها صواب ! !

واختار « عثمان بن عفان » . . .

كانت الأخطار تتهدد هذه الوِفادَة . .

فالمبعوث الذى أرسله النبى من قبل ، حاولت قريش قتله . .

ولم تكتف بهذا فأرسلت خمسين من رجالها يشاغبون أصحاب الرسول ويُحاولون اختطاف بعضهم .

وَسْط هذه المخاطِر المنذِرة المُرْعِدَة ، حمل « عثمان » أمر الرسول ومضى إلى قريش ، لا يعنيه أن يرجع حيًّا أو يقضى هناك شهيداً ، وعلى أبواب مكة واجه الجموع المتحفزة من قريش فبلّغهم رسالة الرسول ، فكان جوابهم له : [إن شِئت أنتَ أن تطوف بالبيت فطُفْ ، أما محمد وأصحابه فلا] .

ويجيبهم « عثمان » :

« ما كُنتُ لأفعل ، حتى يَطُوفَ رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وحال جاهُه وسُؤْدُدُه فى قريش دون الاعتداء على حياته ، لكنهما لم يَحولا دون اعتقاله واحْتِجازه .

ويبدو أن قريشاً أرادت أن تَعْجُم عود المسلمين ، وتبلوَ نواياهم ، فأوْعَزَتْ إلى بعض رجالها ، كى يذهب إلى معسكر المسلمين ويشيع أن قريشاً قتلت « عثمان » . .

هُنالك قرر الرسول عليه السلام أن يُرِىَ المشركين من تصميمه ومقدرته ما يزجرهم عن طغيانهم وما يَعْمهُون ، فدَعا أصحابه إلى البَيْعَة . . وهناك تحت الشجرة ، تمّت أروع مواثيق التاريخ وأكثرها جلالاً وسُمُوًّا

تلك كانت « بيعة الرضوان » التى خلدها القرآن فى تنزيله الكريم وآياته المباركات .

« إنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إنَّما يُبايِعُونَ اللهَ . يَدُ اللهِ فَوْقَ أيْدِيهِمْ . . »

« لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ المؤمنينَ إذْ يُبايِعُونَكَ
تَحْتَ الشَّجَرَةِ ، فَعَلِمَ ما فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ
السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وأثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً . . »

وكأنما كان الرسول يعلم بما معه من نور الله وصفاء البصيرة أن « عثمان » لم يُقتل ولم يُصِبْه سوء ، فبايع نفسه باسم « عثمان » إذ لم يكد عليه السلام يفرغ من مبايعة أصحابه ؛ حتى شدَّ بإحدى يديه على الأخرى قائلا :

« وهذه بَيْعَةُ عثمان »

فلم يبق من المسلمين أحد إلا تمنى لو أنه كان صاحب هذه الحظوة وهذا التكريم . .

وعاد « عثمان » سليماً مُعافى ، وأرسلت قريش سفيراً جديداً هو « سُهيل بن عمرو » الذى أبرم مع الرسول معاهدة عُرِفَت فى التاريخ بـ « صُلح الحديبية » .

* * *

هكذا كانت العبادة عند عثمان . .

يقوم ليله ضارعاً .

ويصوم نهاره خاشعاً .

وينفق ماله بغير حساب .

ويحمل سيفه إذا نودِىَ للجهاد والضِّراب .

وهو يؤدى كل فرائض دينه وشعائر عبادته داخل دائرة وُثِّق من الأمانة على مسئولياته وتبعاته ، كمؤمن صادق وصحابى جليل .

كانت عيناه تفيضان من الدَّمْع كلما تلا هذه الآية الكريمة .

« إنَّا عَرَضْنَا الأمانَةَ عَلَى السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ
والجبالِ فَأَبَيْنَ أنْ يَحْمِلْنَها وأشْفَقْنَ مِنْها ،
وحَمَلَها الإنسانُ . . »

أتُرى بصيرته الباطنة كانت تستَشفُّ من وراء الغيب أياماً سيحمل فيها من الأمانة والمسئولية ما يُطيق وما لا يُطيق . . ؟ ؟

لقد حمل قَدْرَ طاقته وجُهده أمانة دينه ، وأمانة حياته .

وكانت الأمانة فى مفهومه تعنى الإخلاص الكامل لهذا الدين .

ومن ثمَّ أخلَص وصدَق حتى بشَّره الرسول بالجنة ، واصطفاه ليكتب له الوحى ، كما بشَّره عليه الصلاة والسلام بالشهادة يوم كان يقف على مُرتَفع من جبل أحد ، ومعه أبو بكر وعمر وعثمان ، فارتجف المكان الذى يقفون فوقه ، فضربه الرسول بعقبه وهو يقول :

« اثْبت أحُـدُ ، فإنما عليك نبىٌ ، وصِدِّيق ،
وشهيدان » ! !